دور تراثنا الثقافي
في تنمية الثقافة العالمية المعاصرة

بقلم صلاح دهيني

في الادب ، شعره ونثره ، في ناتج الذهن البحاثة الطلعة ، في الخط واللون في الموسيقا والرقص ، في الحجر الاصم انطقه الفنان ، نرى الفكر في توهجه والقلب في فصاحته ، الكلمات ، اللون ، النغم ، ادوات . لكل اداة ايد تضرع ، تمسك ، تقتل ، تداعب . والثقافة التي هي جماع الكلمات والالوان والانغام ، افتتان مستمر ، تحفظ مما قيل، فاض به القلب واعطى العقل ، ما كان يستحق ان يبقى . ولا تحفظ من انجازات الماضي سوى النزر الذي ارتأته جديرا بأن يعود المرء الى تأمله .

وثمة عدد قليل من الشعوب وعدد قليل من القرون ، يشكلان الميراث العالمي . وهناك حوالي ١٠ ـ ١٥ لغة كانت في أزمان متباعدة قد القت على سطح الارض ، كلا في صنف او نوع او لون ، تلك الومضات الخصيبة التي ما زلنا نقبس من وهجها وننور بها اعيادنا .

تلك وقائع لا ريب فيها . وغاية الامر ان تلك التألقات لم تكن ابدا حكرا على امة او قارة او زمان ، فما برزت ثقافة الا بأخذها واستيحائها الثقافات الاخرى القريبة او البعيدة . ان الروعة المدهشة التي يفجؤنا بها ادب ما ، او فكر او فن ظهر هنا او هناك ، في يوم الناس هذا او في عهد سحيق مضى ، ترجع الى اسباب هشة ودقيقة ، بينة المعالم او وليدة الحظ والمصادفة حتى لتنبهر بها عقولنا . فلا الدم ، ولا الاقليم، ولا السلم ، ولا الحرب ، ولا السيطرة ، ولا الحرية ، ولا الفنى ، ولا التنوع ، ولا المعاهد ، ولا المؤسسات ، ولا المواقع ، ولا الازمنة ، ليست تفسر وحدها او مجتمعة تفجر العبقريات .

ويقولون لك : اذا كان لكل امة موروثاتها الثقافية ، فما تلك سوى مستحضرات بيتية يتعبدها المرء في كوخه ليخرجوا من هذا الى ما يروجون له من ان الثقافة العالمية المعاصرة وليدة العطاء الاوربي ـ الامريكي وحده . حتى ان المرء لا يستغرب حين يسمع ويقرأ الكثير عن الادعاء القائل ان عبقرية الثقافة العالمية تتنزل من خليط من نعمة اثينا وجلال روما ولا شيء غيرهما .

هكذا ، تحت قرع صولجانات العنجهية ، وجلجلة مواكب الخيلاء، تنغلق الابواب على النعيم الاوروبي ، ويضيع فضل الامم العريقة القديمة في آسيا وافريقيا على البناء الثقافي للعالم الحديث من الصين والهند وفارس ، الى اشور وفينيقيا والفراعنة ، حتى العطاء العربي .

غير ان المنصفين من الاوربيد انفسهم لا يذهبون في ذلك مذهب غلاة المنكرين الجاحدين . ونبدأ هنا بمقولة نصوغها على هذا النحو :

ان اوروبا عندما تلقت الاديان من الشرق وتبنتها ، لم تتلق مواعظ وعبر مسطورة في كتب اذهلتها عن معتقداتها العتيقة الى درجة الايمان بها والتنكر لما عداها ، بل تلقت من خلالها كذلك جانبا من الميراث الثقافي والاجتماعي للشعوب التي ظهرت فيها الاديان .

ذلك كان المصدر الاول .

ويتصفح المنصفون تاريخ العالم ، فيقرون بأن التأثيرات الثقافية كانت في مد وجزر واخذ وعطاء ، وان النماء الثقافي لم يقتصر قط على امة من الامم او قارة من القارات . وانه يكفي ان ينظر المرء الى خريطة عالمنا في القرون الوسيطة ليرى كيف ان اوروبا التي كانت تعيش في الظلمات ، كانت تتلقى عن طريق الشعوب العربية في شمالي افريقيا وغربي آسيا الميراث الثقافي للعالم القديم بما في ذلك الاسهام العربي . وقد كان لذلك اعظم الاثر في ايقاظ الوعي عند الانسان الاوروبي ، وفي بعث ثقافة انسانية ، اثرت وما انفكت تؤثر حتى يومنا هذا ، لا في اوروبا وحدها بل في مجرى الثقافة العالمية كلها .

وفي هذا المجال يلاحظ ان الشرق سبق الغرب في ثقافته وحضارته وان حضارات الشرق عاشت اكثر من حضارة الغرب ، فالمصرية عاشت اكثر من اربعة الاف عام ، والصينية ٣٠٠٠ ، والفارسية ١٠٠٠ ، واليابانية ١٥٠٠ ، اما العربية فتدوم منذ حوالي ٧٠٠ سنة .

وكانت الحضارات الشرقية تستهدي المثل الخلقية وتسعى لتنظيم علاقات الجماعات والشعوب في السلام ، في حين تتجه الغربية نحو بلوغ المزيد من الرفاهية المادية .

كيف حصل هذا الاتصال ، فالتلاحم ، بين ثقافات شرقية متقدمة ، وثقافة غربية وليدة بدأت تتقدم بوتائر عالية في وقت ما ؟ كيف بلغت الثقافات الانسانية تلك المرحلة المدهشة حين تجمعت في سواق بدأت كلها تنصب في نهر الثقافة الاوروبية المتنامي ؟

لا يقوم ازدهار ثقافي من العدم ، كما لا تنمو زهرة وتتفتح في صحراء مجدبة ، لا معدى عن ان تأخذ كل ثقافة عن سابقاتها ، ثم تجري عملية التحويل التي تتناسب وعطاءها الذاتي .

في تلك المرحلة المبكرة من بدايات النهضة الاوروبية بدأت شعوب اوروبا عملية الامتصاص الكبرى من ثقافات الشعوب التي تقدمتها على دروب الحضارة . وشيئا فشيئا جعلت الافكار والنظريات والمذاهب الفلسفية والعطاءات الحضارية بمختلف اشكالها وصنوفها ، وبمختلف مصادرها الخارجية تنصهر في ذلك المجرى الداخلي المتحرك تحرك اندفاع

أحيانا كثيرة ، ثم تتحول بالتدريج الى جزء عضوي اصيل في الحركة الكلية للثقافة الاوروبية . بذلك اخذ الفكر الاوروبي يتكون ويكتسب طابعا مستقلا ومتميزا بما يتناسب والظروف الجديدة للشعوب الاوروبية التي تختلف بالطبع عن بيئات الثقافات الاسيوية الاقدم ، وبخاصة بعد ان اخترعت اوروبا المطبعة ، فانتقل العامل الثقافي من طور المؤثر الفردي المحدود الى طور المؤثر الجماعي ، اي من اريستوقراطية الفكر الى ديموقراطية المعرفة .

والتفاعل هنا لا يعني الانفعال فحسب . فما قد حدث من تفاعل وتيرة التطور في المرحلة التاريخية التي شهدت تكون الحضارة الاوروبية وتيرة جديدة من حيث سرعة الحركة وطابعها النوعي .

والتفاعل هنا لا يعني الانفعال وحسب . فما قد حدث من تفاعل الفكر الاوروبي في تلك المرحلة التاريخية مع تراث الفكر اليوناني والهندي والفارسي والعربي ، احدث بالفعل تغييرا نوعيا في اتجاهات الفكر الاوروبي ومد امامه افاقا جديدة واسعة وتطلعات فسيحة وضعت على طريق التطور الذاتي والابداع الخلاق . لقد اتخذت اوروبا من ثقافات الشعوب الاخرى موقفا انتقائيا وانتقاديا بمعنى انها اخذت ما استطاعت به ان تعمق افكارها ومفاهيمها الخاصة ، ثم اطلقت لنفسها حرية التعبير والتطوير على نحو يخضع لاتجاهاتها هي ولمنطلقاتها الاساسية ، هي في المذاهب والمناهج على حد سواء ، وذلك هو الابداع .

وهناك معدى عن التوقف عند الدور الخطير الذي لعبه العرب . فحضارة العرب لعبت دور الوسيط ودور المعلم بين الحضارات الاعرق في آسيا وافريقيا ، وبين اوروبا . فهي التي نقلت الموروثات الحضارية عن طريق قرطبة وطليطله في اسبانيا التي قطنتها ثمانية قرون وكذلك عن طريق المدن الايطالية التي احتكت ببلاد العرب اثناء الحروب الصليبية وقبلها وبعدها وكانت مراكز كبرى للتجارة ، وفي مقدمتها البندقية وسالرنو ونابولي ، وبالرمو في صقلية . فبعض نواحي الثقافة في الصين والهند انتقلت الى العرب عن طريق الفرس خاصة ، ثم انتقلت عن طريق العرب الى اوروبا . وحضارة ما بين النهرين في العصور القديمة ، انتقلت الى مصر والى بلاد بحر ايجه عن طريق سورية وسواحل آسيا الصغرى ، كما احتفظت الدولة البيزنطية بمزيج من حضارات الشرق واليونان ونقلها علماؤها وعلماء العرب الى اوروبا خاصة بعد فتح القسطنطينية من قبل العثمانيين .

فلو جئنا ـ من باب التذكير فحسب ـ الى تعداد عابر وسريع الى بعض ما حققته حضارات آسيا وافريقيا من منجزات ثقافية لذكرنا ان الصين عرفت الخزف المدهون منذ الالفين الثالث والثاني ق. م. ، واعمال الحفر والنحت والنقوش والتصوير والكتابة على صفائح الخيزران وظهر اصلاحيون كبار من مثل كونفوشيوس الذي خلف بفكره وتعاليمه اعمق الاثر واوجد الصينيون التقاويم السنوية ، واعظم ما اخترعوه صناعة الورق من قشر الشجر والقنب وشباك السمك والخرق . وبرعوا في الكيمياء ووجدت بين الاثار الصينية اقداح من البلور ومرايا نحاسية ، كما وجدت علامات على اختراع نوع من الطباعة بواسطة الحفر البارز على الواح من الخشب ساعدت على حفظ تراث شعري وفكري كبير . وفي مجال العلوم ينسب الى الصينيين انهم قسموا السنة الى اربعة فصول وجعلوها ٣٦٦ يوما ، ولهم فضلهم على التقسيم العددي العشري ، وفلسفة العلوم والكيمياء والطب البيطري والبحوث الجغرافية ، وهم اول من استعمل البارود .

وطورت الهند علم الفلك ، فدرست حركة السيارات ومواضعها والخسوف ، وحساب الوقت وشروق القمر والشمس ومقاييس الارض ومسافات النجوم . وفي مجال الرياضيات كتبت في الجبر والفائدة والكسور والجذر المربع والمكعب والمساحات والجيب . وتحوي كتابات « بسكرا » فقرات عن الصفر واستعماله وعن الكميات المجهولة والمعادلات البسيطة والمربعة وطول المعادلات غير المعينة . ويقول العالم كولبروك ان الجبر الهندي كان ارقى من اليوناني اولا : بمعالجة معادلات فيها اكثر من عدد مجهول ، ثانيا : بتطبيق الجبر على البحث الفلكي والبراهين الهندسية ، ثالثا : بحل معادلات من نوع واحد اعلى . ويضيف مؤرخ العلوم سارتن ، انه بينما تقدم الفلك الهندي بتأثير الاغريق ، فان الرياضيات الهندية لم تنتظر الهيلينية وعلى ذلك فيغلب ان الهنود ابتكروا الارقام التسعة والنظام العشري .

وازدهرت في بلاد الفرس بسبب تأثيرات مختلفة عدة ديانات ومذاهب في مقدمتها المجوسية والمانوية والمزدكية والزروانية ، وهي شكل توحيدي من ديانة زردشت . وازدهر الادب الديني في الوقت ذاته الذي ازدهر فيه الادب اللاديني في عصر الساسانيين . واعتنى بتسجيل اخبار ملوك الفرس واصبح ذلك اساسا للشاهنامه التي كتبها الفردوسي فيما بعد . وكتبت مؤلفات اخرى عن مدن الفرس وعن لعبة الشطرنج . واهتم الكهنة الزردشتيون بالفلك او التنجيم والجغرافية ، وبدأت في ايران حركة ترجمة واسعة عن آداب وعلوم الهند والعبرانيين واليونانيين . ويشكل الفن الساساني حلقة اتصال بين الفن الاشوري الاخميني والفن الاسلامي . وبعد الفتح الاسلامي لم تمت اللغة الفارسية بالرغم من ان اللغة العربية كانت الرسمية لمدة ثلاثة قرون . بل كان الادب والفن والفلسفة من التأصل بحيث اثرت فارس في جميع الشعوب التي حكمتها ومنها العرب . غير ان التفاعل الحضاري الذي جرى مع العرب جعل فارس وقد استهوتها الابجدية العربية تتبناها لغة كتابة وتؤثرها على البهلوية . فلما جاء الفيلسوف الغزالي حجة الاسلام (١٠٥٨ ـ ١١١٢) كتب بالعربية ، وسما في البحوث التصوفية ، غير ان معاصره عمر الخيام (١٠٩٠ ـ ١١٢٣) الشاعر والفيلسوف والفلكي كتب « رباعياته » الشهيرة وغيرها بالفارسية وبعد وفاة عمر الخيام ولد سعدي (١١٨٤ ـ ١٢٨٢) اعظم شعراء الفرس .

وكانت بيزنطة دولة وسيطة ، لا هي خالصة في شرقيتها ولا خالصة في تأثراتها الغربية ودامت نحو الف سنة بعد سقوط الدولة الرومانية في الغرب الى ان قضى عليها الفتح التركي عام ١٤٥٣ . وكانت حضارة بيزنطة مع الحضارة الاسلامية اهم حضارتين في العصور الوسطى ، وكانت يونانية في اللغة والادب واللاهوت ، رومانية فيما يتصل بقوانينها وتقاليدها العسكرية وسياستها المالية . وقد اثرت في نقل كثير من عناصر الفكر الافريقي الى الثقافة الاسلامية المزدهرة واخذت عنها عناصر شرقية ورثتها من العصر الهلنستي وكتب مفكروها في المسائل الفنية ووضع شعراؤها الاشعار الشعبية ومن اشهر علومها الحقوق والطب والفلك والرياضيات وبرع فنانوها في مجال تصوير الايقونات ، وزخرفة الابنية والنقش ، وبلغ اوج فن العمارة في بناء كنيسة « ايا صوفيا » بالقسطنطينية .

تلك بعض المعالم الرئيسية في ثقافات مجموعات الامم الاسيوية التي تتألف منها الصين والهند وفارس وغربي آسيا ، وقد جئنا على ذكرها ـ ان في تعداد الامم او تعداد منجزاتها ـ من باب التمثيل لا الحصر طلبا للايجاز . وهذه المعالم الكبرى لم تنفرد بها امة من الامم التي ذكرناها ، ولا قامت وحدها دون غيرها ، بل كانت جماع مكتسبات هذه الامم والامم الاخرى في اسيا وافريقيا جميعا بما فيها طبعا الشعوب السوداء التي عنيت كما عني غيرها بدراسة احوال الفلك وكانت لها معتقداتها وديناتها والهتها ، ولها ثقافاتها الخاصة المتناسبة مع ظروفها من آداب شعبية متوارثة وفنون متعددة في مقدمتها الموسيقا والغناء والرقص وحتى التمثيل .

ان هذه المعالم الرئيسية مع ما انجزه العرب فيما بعد ، شكلت البناء التحتي الذي لم يكن منه بد لنهضة الثقافة الاوروبية .

غير ان كل امة من تلك الامم لم توصل وحدها وبوسائلها ، ما حققته وانجزته في مختلف مجالات العلوم والفنون والاداب الى شعوب

اوروبا ، التي بدأت ـ عن طريق الترجمة والنقل ـ عملية الاستقبال والامتصاص والتمثل الكبرى التي ادت فيما بعد الى انبثاق الحضارة الاوروبية .

ان الامة العربية هي التي قامت بهذا الدور بالدرجة الاولى .

فقد جاء حين من الزمن كان فيه العرب المسلمون قد بلغوا ان يكونوا حملة المشعل الحضاري وورثة الثقافات الاقدم . وقد ساعد على تلقيهم تلك الثقافات موقع البلاد العربية في القلب من العالم ، اذ تلتقي عندها قارات ثلاث هي اسيا وافريقيا واوروبا . وبفضل هذا الموقع لعبت الامة العربية دورا خطيرا في تاريخ البشرية ، وكانت مهدا للحضارات والرسالات وقامت بدور الوسيط بين القديم والحديث وبين الشرق والغرب . فقد عكف العرب على دراسة التراث الفكري القديم والمعاصر لهم ، ووضعوا لانفسهم طريقة علمية في البحث والاستنتاج ، فأثبتوا كفاءتهم كطلاب علم ونقلة وتراجمة ، ثم اصبحوا مع الزمن اساتذة المدنية ومنشئي تراثها ، ومؤلفي كتبها فيأوج تألقها، وتركوا للاجيال تراثا حفظ للعالم حضارته القديمة ، واضاف اليه حضارة جديدة كانت الطريق والوسيلة الى النهضة العلمية الحديثة .

وقد اعتاد مؤلفون عديدون من الغرب ان يصفوا القرون الوسطى بالقرون المظلمة وكأنهم بذلك ـ كما يقول احد الباحثين ـ يلغون من التاريخ اجمل عصوره العلمية ، لان في ذلك تجاهلا للنشاط الثقافي العربي الذي نشر المدنية في العالم بعد ان انطوت فارس وانكمشت بيزنطة ، وعادت اوروبا الى همجيتها . هذا النشاط الذي كان من عناصر تطور الحضارة الغربية . وفي هذا المجال نورد قولا للبروفيسور « نويرات » من جامعة بون : « اننا لم نتسلق سلم المجد على اكتاف اليونان كما كنا نظن ، بل على اكتاف العرب » .

والواقع ان الدولة العربية وضعت الاسس للبحث العلمي . فانشأت المعاهد واجرت على مرتاديها الارزاق . ووضعت للجوامع والمدارس نظما تشبه نظم المدن الجامعية اليوم . فكان جامع القرويين في المغرب وجامع الزيتونة بتونس والجامع الازهر بالقاهرة ، وجامع قرطبة في الاندلس والمدارس والمكتبات الكبيرة الاخرى بدمشق وبغداد مراكز للاشعاع العلمي وانشاء الحضارة . وبعض تلك المكتبات وهي مكتبة مدينة طرابلس الشام كانت تضم ـ كما يقول جرهمان وآرنولد ـ ثلاثة ملايين مجلد قضت عليها جيوش الصليبيين .

وقد اخذ العرب عن الصين صناعة الورق وحسنوها وهم الذين نقلوها الى اوروبا عن طريق الاندلس .

وليس ادل على اهمية العلم العربي واثره العظيم في ثقافة القرون الوسطى عامة من ان نورد شهادة المؤلف جورج سارتن في كتابه الضخم « مقدمة لتاريخ العلم » . في هذا الكتاب استعرض المؤلف تطور الحركة العلمية خلال الفي سنة تنتهي مع نهاية القرن الثالث عشر ، وقد حرص المؤلف على ان يجزىء تاريخ الفكر الى انصاف عصور ، ويطلق على كل منها اسم عالم عظيم كان له اثره في الفكر الانساني عامة في تلك الحقبة . فاذا استعرضنا مع « سارتن » القرون الوسطى ، وجدنا ان هذه العصور جميعا عرفت باسماء مؤلفين وعلماء من العرب .

فالنصف الثاني من القرن الثامن دعاه باسم « جابر بن حيان » الكيميائي . وفي القرن التاسع برز « الكندي » عالم البصريات الذي تجاوزت مؤلفاته ٢٥٠ في الطب والفيزياء والفلسفة والموسيقى وترجمت كتبه الى اللاتينية في اواخر القرون الوسطى . غير ان سارتن أطلق على الشطر الاول من القرن التاسع هذا اسم « الخوارزمي » الذي وضع الاسس الحديثة لعلم الجبر واستخدم الارقام الهندية التي تدعى في الغرب « الارقام العربية حتى اليوم » واعطى علم « اللوغاريتم » اسمه.

كما اطلق سارتن على الشطر الثاني من القرن اسم « الرازي » الطبيب الذي كان كتابه « الحاوي » ورسالته في الحصبة والجدري ، وكتابه في السريريات ، من اسس المعرفة الطبية في العالم ، وترجمت الى اللاتينية فيما ترجم من التراث العربي .

وكان القرن العاشر يعج بالاختصاصيين العرب في مختلف العلوم من امثال الفارابي الفيلسوف العالم ، وواضعي رسائل «اخوان الصفا» واختار منهم « سارتن » اسم المسعودي ، الجغرافي المؤرخ ، فأطلقه على الشطر الاول من القرن ،واطلق على الشطر الثاني اسم« ابي الوفاء» الفلكي الرياضي .

اما القرن الحادي عشر فبلغ فيه العالم العربي اسمى عصوره الذهبية . ويصف سارتن هذا التألق حين يقول :

« ان الانتقال من العالم الاوروبي الى العالم الاسلامي العربي يكاد يشبه الانتقال من الظل الى الشمس المشرقة ، ومن عالم ناعس الى آخر متفجر بالنشاط .

في حين يقول ماكس مايرهوف : « .. ان عظمة الابتكار العربي تتجلى لنا في البصريات .. » .

ففي هذا العصر برز « ابن الهيثم » الفيزيائي صاحب النظريات الشهيرة في البصريات والهندسة والفيزيولوجيا ويمكن اعتباره منشىء علم الضوء الحديث ورائده . وظهر ابن سينا من اعظم اطباء العصور وكان كتابه « القانون في الطب » النص المعتمد في كليات الطب الاوروبية طوال ٥٠٠ سنة . وعرف هذا العصر « الغزالي » ناقد الفلسفة المشهور . ولكن « سارتن » اطلق على الشطر الاول من هذا العصر اسم « البيروني » الفلكي الجغرافي الفيلسوف الهندي ، واطلق على الشطر الثاني اسم عمر الخيام الشاعر الفارسي واحد كبار العلماء في الرياضيات والفلك كما قدمنا .

فلما جاء القرن الثاني عشر ، تجسمت نكبات العالم الاسلامي العربي ، فكانت الحروب الصليبية وغزوات التتار ، وحرقت المكتبات ودور العلم ، فلم يطلق « سارتن » على هذا العصر اسما عربيا لكنه اعترف بأن الغربيين بدأوا في هذا العصر بترجمة التراث العربي ، وساروا على آثار العرب في البحث العلمي كما استمدوها من خلال الحروب الصليبية وعن طريق صقلية والاندلس بعد ان احتلهما الغربيون.

ان هذا الدور الخطير الذي لعبه علماء الدولة الاسلامية العربية فيما نقلوا وابتكروا واوجدوا كان دور المهد للتطور العلمي اللاحق . فوجود ابن الهيثم وجابر بن حيان وامثالهما كان لازما وممهدا لظهور غاليليه ونيوتن ، ولو لم يظهر ابن الهيثم لاضطر نيوتن ان يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم ، ولو لم يظهر جابر بن حيان لبدأ غاليله من حيث بدأ جابر . وهذا ما يجعلنا نقول : « لولا جهود العرب لبدأت النهضة الاوروبية في القرن الرابع عشر من النقطة التي بدأ منها العرب عند نهضتهم العلمية من القرن الثامن للميلاد » .

وهذا التأثير الذي كان في ميدان العلوم ، كان له مثيله في الميادين الثقافية الاخرى كافة . فعندك من يرى ان قيام العرب بشرح الفلسفة الكلاسيكية امر جدير النظر والاعتبار ، وهو امر لا بد منه قبل ان تتهيأ العقول للتفكير العلمي الحديث . وهم لم يقفوا عند هذا الشرح ، بل خرجوا الى نسق جديد في بعض بحوث الفلسفة : « فلاسفة العرب قد نحوا في البحث عن الوجود منحى مستقلا غير تابع لتعلقهم بالقرآن».. كما يقول « وولف » . ويضيف ان في الفلسفة العربية « عناصر مستمدة

من مذاهب الفلسفة اليونانية غير مذهب ارسطو ، وفيها عناصر فارسية ثم ان فيها ثمرات عبقرية اهلها .. باختيار اراء من مذاهب اخرى ، وبالتخريج والابتكار » ..

ومن العلماء العرب من يمكن اعتباره مؤسس علم الاجتماع . وفي مقدمتهم « ابن خلدون » الذي قال بلزوم اتخاذ الاجتماع الانساني موضوعا لعلم مستقل ، وذهب الى ان الاحوال الاجتماعية تتاتى من علل واسباب تعود الى طبقة العمران وطبيعة الاجتماع .

وهذا عدا التأثيرات الادبية والفنية الاخرى التي انتقلت من العالم العربي الى الفنون والاداب الاوروبية عن طريق مدرسة قرطبة الكبرى في الاندلس وغيرها من المدارس وعن طريق صقلية كما اسلفنا ومن اشهر القصص التي اثرت في الاداب الغربية في كل العصور قصة « الف ليلة وليلة » الشهيرة ، كما ان اثر التزيينات والزخارف والذهنية التجريدية العربية ما يزال حيا باقيا الى يومنا هذا في الفنون الاوروبية عامة ، وفي العديد من المباني الاثرية والكنائس القديمة .

هكذا آلت زعامة الفكر الى الغرب منذ القرن الرابع عشر بعد ان انتزع فلاسفته وعلماؤه وفنانوه الراية التي حملها العرب عدة قرون . وبقي العرب اساتذة في ضروب كثيرة من العلوم في الفلك والرياضيات والطب والصيدلة وعلم النبات ، وكذا في الادب والفن .

ومن واجبنا ان نذكر ان حضارة العالم العربي الاسلامي (حسب الاصطلاح العلمي المكرس) وثقافته كانت :

أولا ـ الوريثة الشرعية لثقافات آسيا وافريقيا واليونان .

ثانيا ـ انها لم تكن مقتصرة على عطاء علماء وفنانين وادباء ومهندسين وفلاسفة من العرب فحسب بل شارك فيها ابناء القوميات الاخرى ممن اظلتهم تلك الدولة من قازاقستان وطاجيكستان شرقا وكذلك من الهند وفارس وتركيا ، عبر العراق وسورية ومصر والسودان ، حتى المغرب والاندلس غربا .

وقد ظلت هذه الثقافة مبدعة طوال قرون عديدة ، واسهمت اسهاما اساسيا في بناء الفكر الاوروبي والثقافة العالمية ..

* * *

تلك نظرات في الثقافة الاسيوية الافريقية ، وكيف اثرت واندمجت كلها في مسار الثقافة العالمية التي يمكننا ان نصطلح على تسميتها بالثقافة الاوروبية او الثقافة الغربية .

واليوم ، تجد شعوب آسيا وافريقيا ان من اول ما يتوجب عليها ان تتصل بالثقافة الغربية العالمية وان تاخذ عنها ، فالفجوة الاخذة في الاتساع بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة قضية اساسية من قضايا العصر الذي نعيش فيه ، وهي ما تنفك تسوط الضمير الاسيوي الافريقي وتدفعه الى حرق المراحل .

وغاية الامر ان هذه الثقافة الغربية تواجه ثقافات آسيا وافريقيا من وجهة نظر استعلاء . فهي المتقدمة ، وهي مصدر الحضارة ومنبعها، وهي الجديرة وحدها بالانتشار ، والمثقف الغربي ـ بنحو عام ـ يتخذ موقفا عنصريا لدى مواجهته الثقافات الاخرى . فيتنكر لماضيها وينكر حاضرها ، (حتى انه نادرا ما يهتم بترجمة اثارها) ، ويتبرأ من ان يكون تشكله اليوم من نتائج عطائها بالامس . وقادة الفكر الغربيون لا يغيرون آراءهم : فهم لا يطلعون ، ولا يعرفون ، ولا يريدون ان يعرفوا . وهؤلاء كانوا جديرين ـ بثقافتهم الرفيعة ، ومواهبهم العالية ، وتأثيرهم الاكيد ـ ان يدخلوا تغييرات اساسية في اصول التفاهم بين الشعوب ، متقدمها اليوم ومتخلفها .

ان الانطلاقة الحقيقية للتفاهم بين الشعوب ، لا تبدأ من موقف توازن القوى ، بل من ان لكل شعب كيانه وثقافته التالدة والمحدثة . وهنا ، لا تجوز المقارنة بين المنجزات الثقافية المختلفة الا من خلال ظروف تاريخية وذاتية وموضوعية متماثلة .

وان احد وجوه عبقرية « لينين » تتمثل في انه فهم بأن تمام تفتح الشعب ـ اي شعب ـ لا يكون الا بكمال تفتح ثقافته ، وان مثل هذا التفتح ادعى للتفاهم والتآخي بين الشعوب .

ومن بعده جاءت منظمة اليونيسكو ببرنامجها الشهير « شرق ـ غرب » انطلاقا من ان الثقافة وحدة متكاملة ، فلا معدى عن التواصل . ورغم ان هذا البرنامج لم ينجح النجاح المرجو ، الا انه على الاقل شد انتباه الناس الى ضرورة التواصل على المستوى الثقافي تمهيدا للتلاقي على مستوى الرغبة في التفاهم وحياة السلام والوئام .

وبعد ، فأوروبا هي حقا رافعة الراية الثقافية في العالم واحدى منائر الفكر الحديث . لكن اوروبا ليست وحدها العالم الحديث . فتاريخ ثقافتها هو تاريخ عالمنا كله . والشعوب جميعها ، تحت المدارات كلها اسهمت وتسهم ، بشكل او بآخر ، في تكييف الاحداث وتكوين الثقافة الانسانية العالمية وليس يسعدنا اكثر من ان نرى اليوم ، ولاول مرة في التاريخ البشري عدة محاولات تبذل لبناء حضارة مشتركة للعالم كله ، لا تقوم فيها السيادة لشرق ولا لغرب ، بل للجنس البشري كله ، على ان يعمل الناس بروح المساواة والتعاون في سبيل تقدم الانسانية وكرامة الانسان ، دون ما تفرقة لجنس او لقومية او لنظام اجتماعي .

(مراجع البحث)

شمس العرب تسطع على الغرب — سيجريد هونكه

دور العرب في تطور العلوم الطبيعية — البرت ديتريش : مجلة اللسان العربي عدد ٦ ، ١٩٦٩

المدخل الى تاريخ الحضارة — جورج حداد

ثقافة الشرق والغرب — محمد عوض محمد

حضارات وامبراطوريات في افريقيا — عبد الرحمن زكي مجلة «الهلال» عدد ١١

العرب والكشوف العلمية — محمد يحيى الهاشمي مجلة « اللسان العربي » عدد ٥ ، ١٩٦٧

تراث العرب الحضاري ، ما نشر منه وما لم ينشر — عزة حسن

الشرق والغرب — احمد امين

الانتاج الفكري عند العرب — قدري حافظ طوقان مجلة « الثقافة الوطنية » عدد ٦٤

المجتمع العربي — احمد السمان

اين العالم الثالث من العالم المعاصر — أ .ي.ليفكوفسكي. ترجمة مطانيوس حبيب .

الادب والعالم الحديث — تقرير عن المؤتمر الادبي المنعقد في العرب والكشوف الحضاري ، ما نشر طشقند ١٩٦٨ ، مجلة « اعمال وآراء منه وما لم ينشر عدد ١٢٢ ، الطبعة الفرنسية .